

تفسير ابن كثير

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلَفًا
أَلْوَانَهُ ثُمَّ يُهْبِجُ فِتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ

يخبر تعالى : أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء

طهورا) [الفرقان : 48] ، فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ، ثم يصرفه

تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيوننا ما بين صغار وكبار ، بحسب الحاجة

إليها ؛ ولهذا قال : (فسلكه ينابيع في الأرض) . قال ابن أبي حاتم - رحمه الله - :

حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا أبو قتيبة عتبة بن يقظان ، عن

عكرمة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع

في الأرض) ، قال : ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق في الأرض

تغيره ، فذلك قوله تعالى : (فسلكه ينابيع في الأرض) ، فمن سره أن يعود الملح عذبا

فليصعبه . وكذا قال سعيد بن جبير ، وعامر الشعبي : أن كل ماء في الأرض فأصله من

السماء . وقال سعيد بن جبير : أصله من الثلج يعني : أن الثلج يتراكم على الجبال ، فيسكن

في قرارها ، فتنبع العيون من أسافلها .وقوله : (ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) أي : ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً (مختلفاً ألوانه) أي : أشكاله وطعومه وروائحهم ومنافعه ، (ثم يهيج) أي : بعد نضارته وشبابه يكتهل (فتراه مصفراً) ، قد خالطه اليبس ، (ثم يجعله حطاماً) أي : ثم يعود يابساً يتحطم ، (إن في ذلك لذكرى لأولى الأبواب) أي : الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا ، تكون خضرة نضرة حسنة ، ثم تعود عجوزاً شوهاء ، والشباب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً [قد خالطه اليبس] ، وبعد ذلك كله الموت . فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء ، وينبت به زرعاً وثماراً ، ثم يكون بعد ذلك حطاماً ، كما قال تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا) [الكهف : 45] .